يكتبها اليوم الرفيق سعيد

وأصبحت نقطة الضعف... بحيرة

الرفيق سعيد عايش الرفيق بسام منذ وصوله الى مستشفى المقاصد ، وهو في هذه المفكرة لا يعرض شريطا لما رأى ، وانما يعرض بضعة صور انطباعية اشترك فيها الحدث وشعوره تجاهه وكانت صراعا بالغ الحدة بين الالم والامل .. تماما كما كان بسام ساحة للصراع بين الموت والحياة .. وبقدر ما كانت الحياة تنتصر في بسام .. كان الامل ينتصر في الرفيق سعيد .

« الهدف »

عدرا ـ يا بسام ـ ولكن خجلي من دمعي المذروف عليك في اللحظات الاولى لن يمحوه سوى معرفتك به . وبعدو ـ ايها العزيز ـ ان البكاء يغدو احيانا حاجة انسانية ماسة . ولا شك انك تفهمني تماما : انذكر يوم واربنا بقايا غسان التراب ؟!!

□ □ □

كنت قد دخلت غرفة العمليات لتوك حين اندفعت الى احدى غرف المستشفى لاعلم انك عزمت على الرحيل في اثر غسان .. ولكنك عدلت عن عزمك .. ربما .. بضغط من غسان الذي يريدك هنا بين الرفاق . المهم انك بقيت بيننا .. وكانت الليلة الاولى طويلة .. طويلة . كنت تقطع خلالها راس غول الصمت بقولك ، بين الفينة والفينة : « يلا .. بدنا نشتغل ! » .

بسام ،

ليس من شيء يضاهي قوة معنويات عقلك الباطن سوى معنويات عقلك الواعي .. و « يلا .. بدنا نشتغل ! » .

□ □ □

في وحشة الليل الذي بدا بدون نهاية .. كان قلبي معك . ومن خلالك .. كان قلبي مع امك وابيك . آه .. كم هولت اللقاء المنتظر معهما ! ومع آخر الليل وصل والداك من عمان ومعهما اخويك . واسمح لي ، يا بسام ، ان اهمس في اذنيك : ـ شجاعتك كلها لا تعادل شجاعة والديك حين قررا وبحسم : « ليحمه الله .. ذلك هو الطريق الذي سلك مختارا .. وذلك هو الثمن المنتظر .. ليحمه الله ! » .

□ □ □

كما تعرف ـ يا بسام ـ حياتي خلو من الانجازات .. ولكني ـ قاتل الله دغدغة الانسان « للانا » في شخصه ـ لا استطيع مقاومة الافتخار :

لقد حققت انجازا كبيرا مع مضي الساعة الـ ٢٤ على الحادث .. لقد جعلت امك تبتسم .. وطويلا . ومع ذلك اتساءل بشك بيني وبين نفسي :

اتراها قدرتي التي جعلتها تبتسم ام هي شجاعة والدتك ذاتها وشجاعة والدك واشقائك ورفاقك ؟

□ □ □

ثمان واربعون ساعة مضت على انتهاء العملية الجراحية ..

دخل مبعوثا الامل ، الى غرفتك .. دخل الطبيبان لاوند ومجدوب .. امسكت لهما بالمصباح فوق راسك .. بدات ايديهم تزيح طنا من الضمادات عن راسك الذي لم ار منه طوال يومين سوى ارنبة انفك وشفتيك المزمتين . كم اشتقت لرؤية وجهك ! عام كامل غبته عنك وما اشتقت اليك ذلك الاشتياق الذي فاض خلال اليومين الاخيرين . ايديهم تنزع الضمادات . طبقة فوق طبقة ثم طبقة فوق طبقة . ريح شديدة منالالم القلقالمزوج باللهفةالمتشائمة عصفت بي . قدماي ما عادتا تحملاني . بدات ارتعش والمصباح في يدي ارتعش . ها هما قاربا على لمس الضمادة الاخيرة حيث تضطجع عينك الباقية . نظرت لوجهي مبعوثا الامل . اصابع احدهما بدات تزيح الضمادة عن عينك . قلبي يخفق .. يتوقف . انفرج جفنك عن بعضهما . اتراهما ابواب تفتح عن كنز من النظر ام عن خلايا هلامية ميتة لا قيمة لها ؟. نظري يتركز مجددا على وجهي الطبيبين . رايت ارتياحا في اعينهما . عاد قلبي فنبض باكسير الامل العائد . سالك احدهم وهو يضع يده امام عينك :

■ بسام ، ماذا ترى ؟!.

وجاء الجواب ـ الصاعقة ..

● « لا شيء » !

زاغت عيناي مكذبتان جوابك . خفق قلبي .. وتوقف . كرهتك ، ايها العزيز . كرهتك جدا ، للحظة . عاود الطبيب الكرة وسمعتك تقول :

● الان ارى ، ارى شيئا يتحرك .

■ ماذا ترى ؟

● يدا !

واحسست مجددا بضربات قلبي تدق كطبول تقرع في قاعة واسعة خالية .

■ والان ؟!

● ارى ضوءا !

■ والان ؟!

● أصابعك .

■ كم عددهم ؟

● اربعة .

القيت المصباح على السرير . خرجت من الغرفة راكضا .. لم اعد اريد شيئا . علت الابتسامة شفتي . شعرت برغبة عارمة لاعانق امك ، ابيك اخويك ، رفاقك واصدقائك .. وعانقتهم وارتفع الصراخ : بسام ، سيرى ! بسام يرى !.

□ □ □

بسام ،

لحظة نعوا الي عينيك ما بكيت . ومع ذلك امطرت عيناي زخات من الدموع حرى اذ رفت لهم نبا عودة النور الى احدى عينيك . رؤيا شحيحة في البداية . شحيحة جدا ولكنها : الفارق بين ان تحيا للنضال او ان تناضل لتحيا !!

ما كنت لاتصور يوما ـ ايها الحبيب بسام ـ ان افرح ـ افرح جدا ـ اذ اعرف انك فقدت عينا من عينيك . ولكن .. المعادلة كانت :

ان تموت او ان تحيا .. فحييت !

ان تحيا دونما قدرة على رؤية « الهدف » ، رفاقك ، امك ، ابيك ، اختك او اخيك .. او ان تحيا وتراهم .. واليوم انت تراهم !

آه ، ايها العزيز ..

لبضعة ايام ، بثوانيها المسترخية ، بدقائقها المتسلحة وبساعاتها الابدية تقلص عالمي كله ، تلخصت حياتي باسرها واختزلت آمالي بمجموعها لكي تغدو املا في حبة نور تتمسك بعينك الباقية تماما مثلما نحن متمسكون بك ، بل واكثر ، بقدر تمسكك انت بضرورة النضال واستمراره ..

وتمسك النور باحدى عينيك . وعندها رأينا نحن النور .

□ □ □

وماذا عن « مايكل انجلو » الجديد ؟ ماذا عن الدكتور ميشيل ربيز ؟

حسبي ان اقول : آلاف القلوب التي اضطربت ، يا ميشيل ، ومئات العيون التي بكت تقول لك : سلمت يداك ، دكتور ربيز .. سلمت يداك اللتان اعادتا لنا وجه بسام كما نعرفه بعد ان كان .. بعد ان كان ...

□ □ □

قطعوا عددا من اصابعك ولكنهم ابدا لم يكسروا قلمك ..

لم احزن اذ رايت ما جرى لاصابعك ويديك ..

لو اصبع واحد بقي ـ وقد بقي اكثر من اصبع ـ فلا مبرر للحزن .. فلضغط الزناد ، في النهاية ، لا يلزمه اكثر من اصبع !

□ □ □

الامل ..

آه ما اقواه !

كان معيني كي لا انام وابقى ، مع الرفاق ، واقفا الى جانبك .

كان زادي وشرابي .. ضحكتي وابتسامتي في وجوه المئات ممن زاروك .

وبقوة الامل تمكنت من ان « احميك » من محبة الرفاق والاصدقاء فيما لو دخلوا غرفتك وحدنوك .. وارهقوك . وقبل كل شيء ، مكنني الامل ذاك من ان احتمل « شتائم » البعض اذ اعتقدوا انني احجبك عنهم او احجبهم عنك ..

ولا باس من الاعتذار :

آسف .. آسف جدا .. لفظاتي احيانا .. ولكن .. ماذا تراني افعل ولبسام اصدقاء بهذه الكثرة ؟!!

□ □ □

تاثرت بعطف وحب المئات ممن زاروك ..

ولكنني لا استطيع الا ان اذكر تاثري ـ حتى البكاء ـ اذ رايت اول بطاقة ورد تصلك من الفرباء « ابو نضال » ـ شهيد مطار اللد ، واول مكالمة تلفونية من آتي ارملة الشهيد غسان ، واول بطاقة تهنئة بالسلامة من الدكتور انيس الصايغ وزوجته ..

آه .. كم هي متينة رفقة .. الالم !!!

وعرفت الرعب ، فيما اذكر ، مرة واحدة . شعرت بمذاقه في سقف حلقي ، في ارتعاشة ساقي ، في انتصاب شعر راسي . وفي الصداع الحاد المؤلم في جبهتي .

عرفت الرعب اذ رايت وجهك ينتفض بشدة وبسرعة ومعه سمعت صراخك المرتفع المتوجع ونحن نتهيا لالتقاط الصورة الرابعة لراسك في غرفة الاشعة .

اعتقدت لوهلة ان راسك وقع ضحية لهزة كهربائية شديدة .. وايقنت .. للحظة .. انك مت ! وقبل ان التقط نفسي عرفت منك انه الم احد اصابعك المهشمة وقد ضغط عليها احد الممرضين .

وطوال الساعتين التاليتين ادركت سبب الرعب الحقيقي الذي هز كياني : لم يكن مبعثه انني اعتقدت انك مت ، ولكنه خوفي من ان تموت قبل ان تؤدي رسالتك .. ان تموت مكهربا نتيجة خطا صادر عن آلة الاشعة وليس .. كما تريد .. مقاتلا في ساحة النضال ..

□ □ □

انني متاكد ـ يا بسام ـ من ان قامتك لن تنوء تحت وطاة ثقل الاوسمة التي تقلدت . اشعر عمك بثقل الاوسمة وكثرتها ولكنني اعرف انك لن تدع عينك المفقودة تحرمك الرؤية الواضحة التي طالما تمتعت بها . اعرف ان صوتك العذب لن يخفت بسبب انفك الذي كسر او الاسنان التي سقطت . اعرف ان اصابعك المبتورة لن تقف عائقا امام استمرار كتابتك الملتزمة .. اعرف انها لن تخذلك .. تماما مثلما لم يخذلك وجهك الذي كان ممزقا وجسدك الذي كان مطرزا بالحروق والجروح . اعرف كل ذلك ومتاكد منه .. لان قضيتك عادلة !

□ □ □

انعدام النوم او قلته سهرا على المريض .. تيبس القدمين وقوفا الى جانبه .. القلق الممزق للاعصاب خشية على صحته .. باختصار : المعاناة كلها .. كلها .. تختفي باسرع من لمح البصر مع الابتسامة الاولى للمريض ..

وفي اليوم الثامن ـ يا بسام ـ كان موعدنا مع ابتسامتك !

□ □ □

اقسى ـ بل اروع ـ ما علمتني اياه تجربتك ـ يا بسام ـ ان اعرف كيف ادوس على قلبي واخنق الالم بيدين واثقتين .

ولكن ..

لماذا كلما حاولت تجفيف « نقطة » الضعف تلك وجدتها تغدو « بحيرة » ؟!!!